الرجال البيض

محمود زعرور

الممرُّ طويلٌ... والنوافذُ مغلقة.

تنقّل البصر في كلّ الأنحاء، فيرتدّ حزيناً، مكلوماً وهو يرى وجعاً يتكدّس، وبرداً يمتد، وخوفاً بلا حدود يلفّ المكان كلّه.

تختلطُ الأصوات وتتّحد، وتتجمّع الوجوه وتأتلف، وتأخذ بالتشكّل بياضاً متّصلاً.

كنتمْ عراةً، لا يستركمْ سوى البياض، تزحفون ببطء، والألم يقطر من الأجساد الناحلة.

وكالمخنوق، كنتَ تصرخ بلا صوت، ولا أحد يسمع صوتك سواك، كأنّ الصوت قدْ غاب منك في هذا اليوم الشتائي القارس، وبدأ الخدر يسري في أطرافك، بفعل البرد، والألم، والخوف من الآتي.

النوافذ مغلقة، وبلوغها صعب المنال، وما كنتَ تراه يشدّك إليه، يحملك ثانية، لتطوف عيناك في تلك البواري الممتدة.

يناديك ذاك البياض، ويغريك ذاك الدفء، فتهرع إلى غناء الشيخ، في تلك الليلة العارمة بالأناشيد، وبـ«فاطمة»، وبالغزال الأبيض فوق السجادةِ ذاتِ النقوش.

اتجهتَ إلى صدر الغرفة، تمنّي النفس بدفء تألفه لِصْقَ المنقل. ولمْ يتأخّرْ عليك الشيخ، فقد ألقى عباءة الصوف وابتسامته الندية.

– «الجو بارد...».

قلتَ وأنت ترتجف.

– «لقد طال غيابك!».

قال لك معاتباً ومستفسراً.

– «لا شيء. لا شيء هناك. الفحوص فقط. لقد أتممتُ فحوصي على نحو رائع. لا تقلق».

قلتَ ذلك، وأنت تقاوم الارتجاف الشديد، واصطكاك أسنانك من هول الزمهرير.

وأنتَ تطوّف بعينيْك على أشياءِ الغرفة الحميمة، تطلّع إليك الغزال الأبيض في السجادةِ ذاتِ النقوش، الراكض في الغابة. دعوته بحرارة، تمسّد عنقه، تداعب وجهه الأليف، وتضمّه إلى صدرك ليدفئك وجيبُ القلب، والنظرة الحنون.

– «فاطمة ستأتي بالشاي».

يقول الشيخ.

– «الجوّ بارد يا فاطمة!».

قال الشيخ، وهو يلطف من ارتباكك لحظة أنْ دخلتْ «فاطمة».

– «ما عاش البرد!».

صدح اللؤلؤ في ثغرها.

حييتَها، حدّقتَ في العينيْن طويلاً، وردّ العسلُ رقيقاً وهامساً كأحسن ما تكون التحية.

يذهب الاضطراب، ويطرد ذاك الارتجاف، وشيئاً فشيئاً يأنس الغزال الأبيض، وينشر الشيخ أمنه، ولحظة تلتقط كأس الشاي وتقرّبه لشفتيْك المستسلمتيْن يكون السلام قد أرسل جنوده القادرين على أسرك، فتعلن إذعانك قَدَّام هذا الحبور.

المطرُ غزيرٌ في تلك الأيام الشتائية، لكنْ هناك غرفة أليفة، ودثار صوفي، ومنقل بجمر متأجّج يعبق برائحة البخور، وغزال أبيض في سجّادة مزركشة بالنقوش.

وينعس شعرك تحت يدي الشيخ، ولمْ تكنْ «فاطمة» لتبرح مكانها، وكنتَ تسحب يديك سريعاً، ومدارياً، تارة من فوق المنقل المتوهّج تتّقي لسعاته الحارقات وتارة أخرى عندما تنقرك «فاطمة» بأصابعها.

وتأتي لحظة القصائد، ويستزيدك شيخك، لتقرأ، وتقرأ، ولا يوقفك بكاء الشيخ.

هي قوّة لا حدود لها، تدفعك وتدفعك، تمضي بك إلى الشعراء، فتترنّم بأناشيدهم وأشعارهم، فيفتنك جَرْسُ ألفاظهم، وتسحرك موسيقا تراتيلهم وأغانيهم.

كلّ ما فيك كان يرقص، يتمايل، يهتف، ويرقّ.. وكأنّك بهذه الأغاني، وبتلك الأناشيد، تترجم ما في نفسك، وتبوح عمّا يسكن دواخلك التي ما كنتَ لتعلم بشواغلها على نحوٍ واضح وأكيد، بل كلّ ما تدركه أنّك كنتَ مأخوذاً بتلك اللحظة، بتلك الجمرات الوهاجات، وبالشاي الحار، وبذاك المديح الذي يغدقه عليك الشيخ، وبـ«فاطمة».

❀ ❀ ❀

ترنو الآن إلى الممرّ الطويل، تتطلّع إلى النوافذ المغلقة، وتسأل:

– «منْ يمنحني غزالاً أبيض؟!.... منْ بمقدوره توطين غزال تاه في الذهول؟!».

منْ يُعيد إليك تلك الليلة من ليالي الشيخ؟!

تلك ليلة كان لك فيها الموعد الأوّل مع الرّقص، مع الدوران، لقد كنتَ على موعدٍ مع ليلة لنْ تنساها ما حييت.

الغرفة ذاتها. الرفّ الأنيق عينه، والغزال الأبيض هو منْ يركض في السجادةِ ذاتِ النقوش.

دهشتَ بادئ الأمر لهذا العدد الكبير من الرِّجال، وكان الشيخ لا يكفّ عن الإشارة لك، والتنويه بك، وذكر حماستك، وحسن تجويدك للشعر، والإشادة بقلبك الطيِّب المفعم بالإيمان.

تجد نفسك الفتى الصغير الوحيد بين تلك المجموعة من الرجال الطاعنين ولهاً ووفاءً.

ما إنْ فرغتمْ منْ تناولِ الشاي، وبدأ الجمر يستعر احمراراً في المنقل، حتى بدأتم.

كنتمْ جلوساً في البداية، ترتلون بصوت خفيض، وكان الجميع منشغلين وغارقين. ووحدك كنتَ تواجه ذلك بدهشةِ بكر حِرْتَ لها. وتنقّلُ نظراتك إلى الشيخ تارةً، وإلى الغزال الأبيض الراكض في السجادةِ ذاتِ النقوش تارةً أخرى.

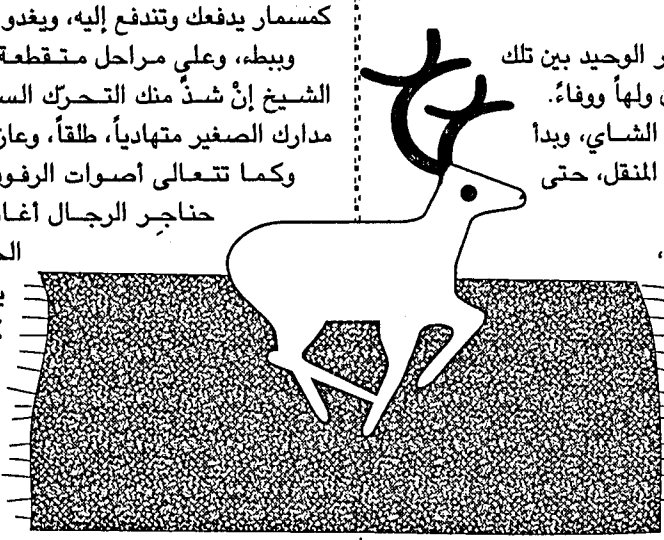

أطفأ أحدهم النُّور، وهبَّ الكلّ وقوفاً، وبدأ النقر على الرفوف. وبطيئاً، وخفيضاً كان الصوت.

وانطلَقت التراتيل والأناشيد، تصاحب إيقاع الرفوف مضطربة يعوزها الانسجام والانتظام. ثم شيئاً فشيئاً أخذ كلّ ذلك يأتلف، ويتواتر، ويتصاعد.

وفي العتمة يرسل الجمر شعاعه الوهّاج، فترى الرِّجال واحداً واحداً، وتجذبك أصابع الشيخ وهي تنقر على الدفّ، تقود الدفوف كلّها، وتحت النافذة العالية مايزال الغزال الأبيض يمعن بعيداً وبعيداً في الرحيل.

وبسرعة، ترك أحدهم مكانه في الحلقة، وتوسّط الغرفة بادئاً الدوران. وعلى إيقاع الدفوف المتصاعدة، القوية، وتلك التراتيل والأناشيد، صار الجميع يتمايلون طرباً، وغدا الكل في رقص أسرا!

وبين فترة وأخرى تسترق النظر إلى الشيخ حيناً، وإلى الرَّجُل الذي يدور بانسياب أخّاذ حيناً آخر.

رأيتَ في الرَّجل صورةً شيخك، وكانوا يقولون بأنْ لا أحد يضاهي الشيخ سرعة وسحراً. وكثيراً ما منّيتَ النفس لتدور مرّة مع الشيخ لتداوي كلّ شوقك ودنفك.

أشار إليك أن تتقدّم إلى الوسط، فقد ترك لكما الرَّجُل المكان. متقابليْن وقفتما، وجهاً لوجه، وحبّاً لحب، فالليلة ستبرهن لوالد «فاطمة» عن ولهك كلّه، وعن حماستك كلّها.

– «هيا يا فتاي! أنت لن تتعب قبلي على ما أظن».

قال شيخك ذلك، وأشار إلى أصحاب الدفوف أنْ يتابعوكما. وبدورك أشرتَ إلى غزالك الأبيض أنْ يأنسَ لك، وفتحتَ ذراعيْك بطولهما، كما فعل شيخك، ويممتَ عينيْك صوب النافذة العالية، فهللتْ لك.

وبدأتَ، مثلما بدأ شيخك في الوقت نفسه، تسحب قدميك قليلاً بحركة تعتمد على قوّة الكعب المغروس في الأرض كمسمار يدفعك وتندفع إليه، ويغدو جسمك خفيفاً ليناً.

وببطء، وعلى مراحل متقطعة، تعود إلى مكانك قبالة الشيخ إنْ شذَّ منك التحرّك السريع، إلى أنْ انتظمتَ في مدارك الصغير متهادياً، طلقاً، وعازماً على الاستمرار.

وكما تتعالى أصوات الرفوف صاخبةً، انطلقتْ منْ حناجِر الرجال أغانيهم وأناشيدهم قوية الجرْس، وحلوة الخِتام، يندغم رَويُّها في معناها، كما تندغم رويداً فرويداً في هذا الخدر الذي يسري في أوصالك، يغذّيه الدوران، ويذكّيه وشيش الجمر حارقاً البخور العبق.

يكبر هذا الخدر، ويتعاظم، ينتشر في أرجاء جسمك كلّها، وترفع من جديد عينيك إلى النوافذ المغلقة، وصورة الغزال الأبيض لا تفارقك أبداً. يتركك الشيخ وحدك فجأة، ينسلّ خفيفاً إلى مكانه في صدر الغرفة بعد أنْ أدركتَ بإشارةٍ منه أنْ عليك أنْ تتابع ما بدأت. وقلت في نفسك:

– «حسناً يا شيخي! لقد قبلت».

وشرع ينقر مع الرِّجال على الدفّ، تلك النقرات التي تعرفها جيّداً، وتميّزها بدقّة.

وطفا صوتُه على كلّ أصواتهم، منتظماً، وقائداً النغمات بتجويدٍ باهر أخذ بمجامع قلبك.

حقاً! إنّه كما حُدِّثْتَ عنه! إنْ قال الشعر أوْ غنّاه فلا أجمل!

وإنْ ضربَ على الدفّ فلضرباته السحر كلّه، وإنْ بدأ الرقصَ والدوران فلا أسرع ولا أبهى!

وكمن يطلب كلّ ذلك، أو يماثله، أو يتحدّاه، لا فرق في نفسك، صممتَ على المضي طويلاً مادام يسعفك ثباتك.

وبلا صوت صرختَ:

– «أنا هنا يا شيخي! إليّ بكلّ القصائد، بكلّ الجمرات،

ويكلّ البخور، إليّ بغزالي الأبيض، وبفاطمة، وسأريك الليلة كلّ وجدي!».

ترتجف من البرد، وترى الرجال البيض يرتجفون كذلك في هذا العمر الطويل، فتصرخ بلا صوت.

وعلى نحو أعظم من ذي قبل، يكبر الخدر، فيغدو جسمك كلّه لدناً، فتدور بإحساس من يعوم تارة، وبخفّة من يطير تارة أخرى.

وعبر النافذة العالية المفتوحة رحلتَ، تجوب أماكن غريبة عنك، تستكشف القصيّ، والمجهول، والغامض، والمخبوء، والمحرَّم، والمرغوب، والمشتهى.

تكون مع شيخك تارة، ومع نفسك ترود حالك المتقلّبة برهة فبرهة تارة ثانية، وقد ادركتَ ذلك من سماعك للقصائد؛ فقد كان يأتيك صوت الشيخ كرجعٍ بعيد، أو صدىً غائر.

تهتف بداخلك لفاطمة، ويتعاظم طيرانك خفاقاً، وعشتَ لحظات مديدات كمن ألْتَاثَ، أو أُخِذَ عن دنياه عندما صار صوت شيخك يختلج بكاءً مرّاً، وكان يضفي على الكلمات وجعاً يعذّبه ويسكرك.

وتمعن في الدوان، ويذهب بك الظنّ بأنّك لنْ تتوقّف أبداً، بل لن يكون لقوةٍ في الأرض قدرة على إيقافك، أو تثبيط ما يدفعك، أو ما يحثّك على المزيد.

خرج الغزال الأبيض من السجّادة ذاتِ النقوش، وصار يدور معك، وأمامك، ووراءك. كان لصقك تارة، ودونك تارة أخرى، ممعناً ببهائه، ومحوّطاً مثلك بالسحر.

طفتَ معه غاباته وسهوله، ورحلتما إلى أماكن لا تخطر على بال بشر!

هرعْت «فاطمة»! وصرختَ بلا صوت:

– «ياكون ما أسعدني».

يداك تشتبكان في يديْها، تحضنها وتحضنك، ويمعن الغزال الأبيض سرعاً ورشاقة. ويطلق الشيخ صيحة قويّة، يناديك:

– «ادخلْ يا مريد! فالإيوان منصوب!».

يهرع إليك يوقفك راجياً ومغتبطاً، يحوّطك بين ذراعيه، ويخيّم فرح على الوجوه، وتدخل نفسك في سلامٍ لن تنساه!

ويندفع الغزال الأبيض إلى السجادةِ ذاتِ النقوش ليسكن غابته. وباندفاعته هذه يخطئ مكانها، فيبلغ ذروة اهتياجه ويرتطم بقوّة بالحائط، ويطلق صرخة ذعر وألم وهو يسقط متكوّماً على الأرض مرتجفاً ونائحاً بصوت مخنوق، ثم ينطفئ إلى الأبد.

البرد يتعاظم، والألم يبلغ مداه الأقصى، والرجال بياض ممدود، والنوافذ مغلقة.

امرأةٌ من عسلْ

عدنان حافظ جابر

وجدتُ لكَ امرأةً
حين تراها بجانبك في الصباح
ستشكرُ اللّه والوالديْن
كلُّ نهارٍ تمنحكَ سبباً للحياةْ
ولا تعاف فخذيْها
بعد ليلةٍ أو ولَدَيْن

❦

وجدتُ لكَ امرأةً
كلامها يحكي
وصمتها يحكي
إنْ حاصرتكَ الهمومُ
ترمي رأسكَ على صدرها
فتطير الهمومُ.. بغمضةِ عينْ

❦

وجدتُ لكَ امرأةً
حين تضحكْ
تُمطرُ الدنيا
وحين تبكي
يكفكفُ دمعَها الطيرُ.. ومَلِكُ الجنّ

❦

وجدتُ لكَ امرأةً
جميلةَ العقلْ.. وجميلة الجسمْ
لا ترتوي منها.. ولا تَمَلّ
امرأةً من عسلْ
وهذا عنوانُها:
إبحثْ عنها طويلاً...

بلغاريا